

نظام الرواية بين سلطة البنية وبنية الأسلوب

د. سليمان بن سمعون (ج. غرداية)

عندما نقرأ أي رواية فإن الذي يستوقفنا هو اللغة التي كتبت بها ، ذلك أن اللغة ونظامها هو ما يتحكم في التفريق بين جنس أدبي وآخر بالإضافة إلى طريقة الكتابة ، وقد بدا لنا في هذه الدراسة أن نتحدث عن نظام الرواية بين سلطة البنية وبنية الأسلوب أو بالأحرى أن نوضح بعض المفاهيم البنيوية والأسلوبية التي يستعين بها المحلل في تقطيع أجزاء الرواية ورصد أبنيتها وتحديد دلالاتها.

لكن الإشكال الذي واجهنا هو هل نستطيع أن نثبت نظاما خاصا بالرواية سواء من حيث بنيتها أم أسلوبها؟

إذا كان الجواب بالإيجاب فما هو نظام الرواية؟

نعتقد بادئ الأمر أن نظام الرواية هو لغتها التي كتبت بها، ولكن هذه اللغة يحكمها نظام لغوي معياري تواضعي قد يوحد بين مختلف الروائيين من حيث اعتماد قواعد هذا النظام دون الخروج عنه أو محاولة الانزياح عن هذا النظام إلى نظام آخر أكثر خصوصية هو نظام الجنس الأدبي لتحديد مفهوم البنية والأسلوب، وهذا لا يتأتى إلا بعد دراسات وبحوث متخصصة في تحليل الرواية.



أثار اهتمامنا في البداية أن نقف عند مفهوم البنية، ولماذا سلطة البنية؟ ألا يجدر أن تكون مهمة البنيوية أو هدف التحليل البنيوي الوقوف على شكل الرواية ونظامها ثم البحث في أبنيتها المختلفة؟

وإذا حاولنا أن نبرز أهم مكونات الرواية من حيث تحليلها بنيويا فإننا سنحصرها في بنية الأفعال وبنية السرد وبنية الوظائف، وهذه المكونات والأبنية ثابتة في تحليل الروايات حتى وإن اختلفت في مضامينها، وهذا راجع إلى ثبات اللغة العربية (فاللغة العربية تتمتع بثبات بنية تركيبها، منذ عُرِفَت اللغة الفصحى إلى يومنا هذا وستبقى اللغة العربية على هذه الحال من الثبات، لأنها تملك معيارا لغويا ثابتا في التراكيب لا يتغير، هو القرآن الكريم)¹.

وللتفصيل في هذه الدراسة نقسمها إلى مجموعة من المفاهيم: وهي سلطة البنية، بنية الأسلوب، بلاغة الرواية، ومفهوم الايدولوجيا، وسنفضّل في هذه المفاهيم بإيراد المفهوم وتحليله وأول مفاهيم الدراسة:

1 - سلطة البنية:

جدير بالذكر هنا أن أي نص أدبي له بنيته التي تحفظ له أدبيته وشكله، ولكن هذه البنية ينبغي أن تضبط بقوانين وقواعد تشكل إبداعية النصوص الأدبية، فما هي البنية وما شروطها؟

يرى زكريا إبراهيم أن (البنية ليست مجرد تعبير عن ذلك الكل الذي لا يمكن ردّه إلى مجموع أجزائه، بل هي - أيضا- تعبير عن ضرورة النظر إلى الموضوع على أنه نظام أو نسق حتى يكون في الإمكان إدراكه أو التوصل إليه)²:

إذن النظر إلى الموضوع من حيث بنيته يعني البحث عن النسق أو النظام الذي يجعل الموضوع متمحورا في سياق اجتماعي يهدف إلى





إبراز غرض ما، فموضوع أي رواية يستند إلى الواقع الاجتماعي سواء أكانت الرواية واقعية أم خيالية، ولكن التحليل البنيوي الذي يعتمد البنية مفهوما علميا لم يراع أهمية الموضوع في الدراسة الأدبية، وبات من المسلّم به أنّ البنية تضبط إبداعية النصوص الأدبية من حيث البحث في أبنيتها الداخلية، لأن من شروط البنية كما يرى جان بياجيه الشمولية (الكليّة) والتحويل لانتظام الذاتي؛ وهذه الشروط تكاد تقتصر على شكل النص، غير أن هذا لا يعني أن نقف عند البنى الداخلية للنص الروائي دون الحديث عن موضوعه (دلالته)؛ لأن مفهوم البنية يستدعي الدلالة، وهذا ما غفلت اللسانيات عنه حينما اكتفت بالبحث في الأنظمة الداخلية للنصوص مستعينة بالنظام اللغوي أو اللساني، ويرى عبد السلام المسدي أن أول المنطلقات التي تستند إليها النظرية النقدية يتمثل في (اعتبار اللغة قائمة على وظيفة دلالية هي بمثابة الرباط الحتمي الحاصل بين مجموع الألفاظ الواردة في الكلام المقصود بالذات وينتج عن هذا التقدير بطبيعة الحال أن النظرية الأدبية في النقد تحتكم رأسا إلى البعد اللغوي في النص الإنشائي)³.

ولا يستطيع المحلل البنيوي أن يكشف بنية الموضوع إلا بعد أن يثبت للنص الروائي بنيته الخاصة، وهذا لا يعني أننا نبحث في حدود الجنس الأدبي بالاقصصار على الرواية فقط؛ وإنما البحث في الأبنية يشمل جميع النصوص الأدبية باختلاف أجناسها وأنواعها وإن على المحلل أن يراعي في أي مقارنة نظرية أو تطبيقية مستقبل الرسالة وهو القارئ ليتمكن من نقد استجابته وهذا يعني الانتقال من أفق النص من حيث قراءته واستيعابه إلى تحديد مقاربه (وعندما ننقل من أفق النص كبعد أساسي في تحديد أفق أي مقارنة، فإن أحد الأبعاد المركزية التي تواجهنا





بعد ذلك هو أفق القراءة الذي لا يقل إشكالا عن إشكال النص، ولعل أول منطلق قد يكون مقنعا في هذا الاتجاه هو التسليم مبدئيا بأن قراءة أي عمل أدبي (نص) يمكن أن يتم وفق مستويات عدّة، إلى جانب أنها- القراءة-محكومة بمنطقها الخاص من حيث وصف نظامه واعتماد أدوات واصفة بهدف الكشف عن معناه أو تأويله، والقراءة وفق هذا وذاك إجراء من إجراءات التعرف على بنية النص الظاهرة والخفية)⁴.

إنني أعتقد أن هناك ثلاث بُنى يمكن الوقوف عليها في تحليل الرواية وهي بنية الأفعال وبنية السرد أو الخطاب وبنية الوظائف، وقد استقيت هذه الأبنية من دراسات تودوروف ورولان بارث وجيرار جينيت وغيرهم، وينطلق أي حديث عن سلطة البنية في الرواية من الكشف عن هذه البنى الثلاث وكيفيات اشتغالها، ولنا في الدراسات النقدية العربية دليلا على هذا الاهتمام بالتحليل البنيوي ومن بينها: كتاب في الرواية السورية لسمر روجي الفيصل، وحركية الإبداع لخالدة سعيد، وكتاب مورييس أبو ناضر بعنوان/ الألسنية والنقد الأدبي في النظرية والممارسة، وكتاب نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة لنبيلة إبراهيم سالم، ومعرفة النص ليمنى العيد، وبناء الرواية لسيزا أحمد قاسم، وكتاب القراءة والتجربة حول التجريب في الخطاب الروائي الجديد بالمغرب لسعيد يقطين، وكتاب مدخل إلى نظرية القصة لسمير المرزوقي وجميل شاكر وغيرهم⁵.

وقد ارتأينا أن نقف عند مفهوم سلطة البنية من حيث البنى الثلاث وهي: الأفعال، والسرد، والوظائف من حيث الجانب النظري لبيان خصوصية المنهج البنيوي.





1 - 1. بنية الأفعال:

تتمثل هذه البنية فيما تؤدّيه الشخصيات من وظائف داخل النص السردى، فقد درس رولان بارث الشخصية انطلاقاً من مفهوم العامل والعلاقة فقسم العلاقات إلى ثلاث : وهي علاقة الرغبة والتواصل والصراع؛ وقد اعتمد تودوروف كذلك هذا التصنيف نفسه فأدرجه في نطاق منطق الأفعال، ولا يبتعد غريماس عن هذا التقسيم أيضاً، وإن كانت دراسته سيميائية أكثر منها بنيوية وعليه (يمكن تصنيف الأسماء في البنيات العميقة للتخييل الشخصى في الأغلب، لكن ليس وحدها إلى أدوار مثل العامل، المتقبل، المستفيد، الوسيط، الهدف، الموضع وما شابه ذلك لنعترف في الحال أن مثل هذا التحليل-أمثلة منه توجد في عمل النقاد الفرنسيين والمنظرين أمثال تودوروف وغريماس- تخطيطي جداً، حيث يختزل القصص والمشاركين فيها إلى صيغ وشفرات)⁶.

إن بنية الأفعال مرتبطة بحركة الشخصيات داخل النص السردى بوصفها عوامل تقوم بإنجاز موضوع ما، وبالتالي فالعامل هو شخصية تقوم بدور ما في إنجاز معنى الرواية أو النص السردى عموماً؛ لذلك يُنظر إليها على أساس قيامها بالفعل (ذلك أن مبحث الشخص والشخصية استمرار لمبحث البنية الروائية طالما أنه يتناول أحد مكوناتها الكبرى والأساسية... لكونه يتناول علاقة الكلمة أو العبارة بمرجعها، ولكونه ينتقل من العام (الشكل والمضمون) المرتبط بكل الأجناس الأدبية أوثق ارتباطاً، إلى الخاص الشخص والشخصية المتصل بالجنس الروائي أو ما يشبهه (القصة القصيرة أو الطويلة) اتصالاً وثيقاً)⁷.

1 - 2. بنية السرد أو الخطاب:

إذا كنا قد ربطنا بنية الأفعال بالشخصيات وأدوارها داخل النص





الروائي؛ فإن بنية السرد تتمثل في تحديد مفهوم السرد وهو الطريقة التي يقدم بها الراوي الأحداث، ولكن قص هذه الأحداث يندرج في إطار تتبّع تسلسلها الزمني، فمفهوم القص يعني (سرد قصصي للحوادث مرتبة تبعا لتسلسلها الزمني)⁸.

أما الإشكالية التي تواجهها في تحليل التسلسل الزمني للأحداث فهي كيف نفرّق بين زمن السرد (الخطاب) وزمن الرواية؟

بما أنه لا يوجد مضمون بدون بنية، فإن التسلسل الزمني للأحداث يعني ارتباطها الوثيق بالراوي الذي يقوم بالتلاعب بالزمنة، فالقصة أو الرواية لها زمنها الحقيقي الذي وقعت فيه، ولكننا لا نستطيع أن نخضع الرواية لهذا الزمن لأننا نتعامل مع أزمنة متعدّدة، فقد يُقدّم الراوي حدثا ويؤخّر آخر، وهكذا حتى يكتمل مضمون القصة أو الرواية (لأنّ النص الأدبي نسيج من الأداء اللغوي، ولأنه هو الذي يتكلّم على حد تعبير بارث، فهذا الكلام تُنتجه اللغة كأداة تُحدّد تشكيله ومعماريته، وكألية لإنتاج المعنى، من هنا كان لزاما الانطلاق من هذه الأداة بهدف الوصول إلى الدلالة، في هذا السياق تأتي اللسانيات كدراسة علمية لهذا الوعاء لاستجلاء مظهراته الحسيّة)⁹.

يتبيّن لنا أنه لا يمكن الحديث عن بنية السرد إلا من خلال إدراج آخر بنية يستدعيها المنهج البنيوي في تحليل الرواية وهي:

1 - 3. بنية الوظائف:

يراد بالوظيفة هنا وظائف اللغة التي قدّمها رومان جاكسبون، وإنما يراد بها الوحدات البنائية التي يتأسس منها الخطاب السردى، فكل كلمة أو جملة أو فقرة في الرواية تؤدي معنى أو وظيفة داخل البنية الكلية للرواية ورغم أن اشتغال النص السردى بالمنظور الكلي وتطبيق مفهوم الكلية بدل الاهتمام بالتجزئ في تحليل مكّونات الرواية إلّا أننا في بعض



الأحيان نقف عند دلالة كلمة أو جملة تؤدي وظيفة أو دلالة مركزيّة تساهم في بلورة دلالة النص الكلية.

إن حديثنا عن سلطة البنية في نص الرواية لا يقف عند بنية محدّدة، ولكننا نبحث عن العلاقات التي تقدّمها أبنية النص وصولاً إلى تحديد البنية الكلية، رغم أن التحليل البنيوي لا يهتم بالمضمون لأنه يتوجّه إلى شكل النص (والذي يتفق فيه الشكلاونيون والهيكليون اللغويون، وما أكثر ما تتماثل في كتاباتهم المواقف أنهم يقتصرون على النصوص الأدبية في التعرّف على أسرارها الأدبية وأنهم يجعلون الدراسة متّصلة في الآثار نفسها، فالأدب عندهم أولاً وبالذات نص وكل ما يهّمه في درسه كائن فيه ملازم له لا يلتمس أبداً خارج حدوده)¹⁰.

ومن مقتضيات القول الإشارة إلى أن المنهج البنيوي لم يهمل المضمون مطلقاً وإنما حاول استنباط دلالة النص من شكله، وإذا كان هذا حاله فما هي منزلة الأسلوبية في قراءتها لنص الرواية؟ وهل لها إجراءاتها الخاصة بها؟

يمكن أن نجيب عن هذه الأسئلة من خلال بنية الأسلوب في الرواية، ولتوضيح ذلك سنعتمد الإجراءات التالية: مفهوم الاختيار الأسلوبي، التركيب، الانزياح، بلاغة الرواية، مفهوم الايدولوجيا في الرواية.

2 - بنية الأسلوب:

من المتعارف عليه أن الأسلوبية انبثقت من اللسانيات البنيوية، ولا ينكر أي عاقل هذا الانتقال من مجال البنية إلى مفهوم الأسلوب إلا أن الاختلاف بين المنهجين البنيوي والأسلوبي يتجلى في إجراءات كل منهما، وقد رأى عبد السلام المسدي أن (الأسلوبية في نهاية مطافها تطمح إلى





تأسيس مبدأ الشعرية على أثر النص في حين يسعى المنهج البنيوي إلى تأسيسه على منطوق النص، فالأدب في نظر الأسلوبية لغة شعرية ولكنّه في نظر البنيوية شعرية لغوية، وشارح النص عند الأسلوبيين مفكّك لرسالة فنية، وعند البنيويين مركّب لبناء صوري يلتقط عناصره بين حنايا الرسالة الفنية والأسلوبي يقوم بدور الخبير يجزّملف التشخيص ليسلمه إلى الناقد كي يحدّد وصفة القيمة، بينما يعالج البنيوي جسم النص معالجة مباشرة مكثفية بذاتها¹¹.

ونظرا لعلاقة بحثنا فيما يخص ارتباط سلطة البنية ببنية الأسلوب في الرواية؛ فقد بدا لنا أن نذكر أهم مميزات المنهج الأسلوبي وإجراءاته التي تساعدنا على تحليل الرواية ولعلّ أهمها:

2- 1 مفهوم الاختيار الأسلوبي:

ينبغي على محلل الرواية أن ينظر في النسيج اللغوي الذي كتب به النص الروائي، وذلك بالإطلاع على المعجم اللغوي للرواية لبحث عن العلاقات الدلالية في إنتاج معنى النص، ولذلك كان الاختيار الأسلوبي مرحلة مهمّة من مراحل التحليل الأسلوبي، يقول الباحث إبراهيم خليل في حديثه عن الأسلوب (تحصيل الحاصل أن الحديث عن الأسلوب يعني الحديث عن الاختيار... فالكاتب ينتقي من المعجم، وينتقي من دلالات اللغة التي يستخدمها ثم يأتي بعد ذلك الاختيار الثانوي وهو اختيار المعاني)¹².

بهذا يمكننا القول إنّ الأسلوب اختيار وانتقاء للكلمات على مستوى المعجم، وعلى مستوى الاستعمال اللغوي، ولكنّ هذا الاختيار ليس عشوائيا بل يضبطه إجراء آخر لا يقل أهمية عنه وهو:





2-2. مفهوم التركيب الأسلوبي:

لا يمكن الحديث عن بنية الكلمة في وضعها المعجمي فقط ، ولكن تكمن أهميتها فيما تؤدّيه من دلالات محددة في إطار التركيب ، أي في تعالّقها مع غيرها من الكلمات الأخرى المتجاورة معها في السياق نفسه حيث (إن اختيار الكلمات لا يكون مفيدا إلا إذا أحكم توزيع هذه الكلمات، وهي تتوزّع على مستويين حضوري وغيابي، فهي تتوزّع سياقيا على امتداد خطي، ويكون لتجاورها تأثير دلالي وصوتي وتركيب، وهو ما يدخلها في علاقات ركنية وهي أيضا تتوزّع في شكل تداعيات للكلمات المنتمية لنفس الجدول الدلالي، فتدخل إذن في علاقات جدولية أو استبدالية فيصبح الأسلوب بذلك شبكة تقاطع العلاقات الركنية بالعلاقات الجدولية ومجموع علائق بعضها ببعض)¹³ .

إذن فبنية أسلوب الرواية تتركز على هذه الثنائية وهي الاختيار والتركيب، ولا يمكن بأي حال أن نغفل إجراءً دون آخر فتركيب المعنى في النص لا يقف عند مفهوم واحد ، وإنما البحث عن المضمون الكلّي للنص يقتضي البحث في كيفية تركيبه لأن الكلمات في الرواية هي وحدات دالة؛ تشتغل مع بعضها البعض وفق علاقات دلالية متعددة، ومن ثمّ وجب على المحلّل الأسلوبي ألا يغفل عن بعض مكونات الرواية على حساب مكوناتها الأخرى، لأن الأحداث أو الأفعال والشخصيات والزمان والمكان هي بمثابة وحدات دالة في تركيب النص الروائي، فغياب عنصر من هذه العناصر يخلّ بنظام الرواية، ومن هنا اضطلعت أسلوبية الرواية بالنظر إلى علاقة النظام اللغوي بالنظام الأسلوبي للنص الروائي وهو ما يسهّل على المحلّل كيفية التعرّف على بنية أسلوب الرواية، ولنا في الأعمال التي قدّمها الباحثون العرب من أمثال حميد لحمداني في كتابه أسلوبية الرواية مدخل نظري، ومحمد برادة في ترجمته لكتاب الخطاب





الروائي لميخائيل باختين ، وكتاب أسئلة الرواية أسئلة النقد لمحمد برادة، وسمرروحي الفيصلي في كتابه أسلوبية الرواية العربية، كان لهذه الأعمال وغيرها أثر بارز في فهم بنية أسلوب الرواية لذلك (يحتاج التحليل النقدي لأسلوبية الرواية إلى معرفة العلاقة بين نظام الأسلوب ونظام اللغة ، سواء أكانت الرواية تضم أسلوباً واحداً مهيمناً أم كانت تضم تعدداً في الأساليب ، وليست هذه المعرفة هيّنة لسبب بسيط وجوهري في الوقت نفسه، هو أن نظام اللغة نظام معياري ، يمكن تحديد الصواب من الخطأ عند مستعمله استناداً إلى سنن العربية في النحو والصرف واللغة... أما نظام الأسلوب ففردى صرف، لا علاقة له بالمعيارية، أي أنه نظام لرواية محددة وليس نظاماً لكل رواية... فما يصلح لرواية من الروايات لا يصلح لرواية أخرى، تبعاً لاختلاف الروايات في الحوادث والشخصيات والمواقف والرؤى)¹⁴.

لكن هذا الاختلاف بين النظامين اللغوي والأسلوبي لا يبرز إبداعية النص الروائي إلا من حيث الجانب اللغوي الذي كتبت به الرواية، فهل نستطيع أن ندرج مثلاً مفهوم الانزياح في نظام اللغة أم في نظام الأسلوب؟ وهل هو إجراء ضروري في كل نص سردي؟.

إن الإجابة عن هذا التساؤل تجعلنا نقرأ الانزياح في واقع الأمر هو أمر نسبي، فلكل كاتب أو روائي طريقته الخاصة في الكتابة ، والذي يتحكم في إنتاجه هو موضوع الرواية التي أبدعها من واقعها الاجتماعي أو من خياله المستند إلى تجارب ووقائع اجتماعية ، لذلك وجب الحديث عن مفهوم الانزياح، وبلاغة الرواية لنصل إلى توضيح بنية أسلوب الرواية انطلاقاً من نظامها الأسلوبي.

2-3. مفهوم الانزياح:

يُعتبر مفهوم الانزياح أهم إجراء أسلوبى بعد الاختيار والتركيب، وقد





تعددت المصطلحات الدالة عليه فبعض الباحثين يستعمل مصطلح الانحراف، وبعضهم الآخر العدول،..... إلخ، ولكن الإشكالية ليست في تعدد المصطلحات الدالة على الانزياح، ولكن في توظيف هذا المفهوم في إطار التحليل الأسلوبي للرواية، فهل له علاقة بنظام اللغة أم بنظام الأسلوب في الرواية؟

يجيبنا الباحث عبد السلام المسدي بتقسيمه للاستخدام اللغوي إلى مستويين: المستوى العادي وهو الذي يستعمل اللغة وفق النمط المثالي المؤلف المتواضع عليه، والمستوى الإبداعي وهو الذي يخرق الاستعمال المؤلف للغة وينتهك صيغ الأساليب الجاهزة¹⁵.

ومهما يكن توظيفنا لإجراء الانزياح مقتصرًا في أغلب الأحيان على ما هو خارج الاستعمال المؤلف للغة، فهذا يعني أن أسلوبية الرواية لها حدودها وقوانينها الخاصة، لأن الانزياح في الرواية قد يأخذ أشكالًا متعددة سواء على مستوى الحدث أم الشخصية أم الزمان أم المكان؛ فهو لا يرتبط فقط بالمجاز أو البحث في الدلالة الإيحائية للتراكيب اللغوية المنزاحة عن نظام اللغة أو عن المعيار اللغوي، وهذا يشكل في البحث النقدي إعادة النظر في مفهوم البلاغة، وخاصة بلاغة الرواية، وهي مرتبطة ببعض الخصائص التي تميز النص السردي عن غيره من النصوص الأخرى.

2-4. بلاغة الرواية:

تضمّن أي نص أدبي تراكيب لغوية مألوفة وأخرى غير مألوفة، فهو يتكوّن من أبنية تعبيرية مختلفة منها بنية التعبير المؤلف الدلالة المباشرة، وبنية التعبير المجازي الدلالة الإيحائية..... إلخ، ووظيفة المحلل الأسلوبي للنص الروائي لا تقف عند التمييز بين هذه الأبنية، ولكن وظيفته تكمن في تحليل لغة النص من حيث بنيته الكلية وفي تتبع مضمون الرواية انطلاقًا من شكلها (فالشكل احتواء المضمون من حيث





الفنيّة ، والمضمون فكرٌ يرتدي الشكل كي يختفي داخله ، وفي ثناياه ، لذا فتعامل النقد مع النص يستوعب الانطلاق من تشرّيح هذه الثنائية التي لا تقبل العزل ، وإنما البحث في الشكل معناه البحث في كيفية التعبير ، في طريقة الصياغة ، وما يتعلّق بذلك مثلاً البحث عن الراوي ، تداخل الأصوات ، زمن النص في امتداده وقصره ، الوصف وشعرية النص من خلال الصور الكامنة فيه ، وفاعلية الأبطال¹⁶ .

ثمّ إنّنا هنا نملك بلاغة للرواية انطلاقاً من مكوّناتها ، فتحليل الأساليب في الرواية ؛ والبحث عن كلمة المؤلّف ودلالة الشخصيات ، وهيمنة الزمان والمكان هي ما يميّز الأسلوب في الرواية ، ومن هنا ارتأينا أن نوضّح أن كلمة بلاغة لا تقتصر على التقاليد البلاغية الموروثة من علم البلاغة المعياري ، ولكن البحث في الرواية وبلاغتها هو بحث في مكوّناتها ، وعلاقة هذه المكونات مع بعضها البعض ، فلا نقتصر على دراسة صوت الراوي وإبرازه بشكل خاص دون أصوات الشخصيات المساهمة في بنية الأحداث في الرواية لأنّ (لغة الرواية لا يجوز وصفها في مستوى لغوي واحد ، إنّها نظام مستويات متقاطعة ، ولهذا ليس في الرواية لغة واحدة ولا أسلوب واحد ، ولكن يوجد - في الوقت نفسه - مركز لغوي أو خطاب إيديولوجي للرواية . والمؤلف ، بوصفه صانع الكل الروائي ، يتعدّد العثور عليه في أي من مستويات اللغة إنّها في المركز التنظيمي لتقاطع المستويات)¹⁷ .

فالببحث في لغة الرواية يُحقّق مبدأ الحوارية عند الباحث ميخائيل باختين من حيث تعددية أساليب الرواية .

ويمكننا القول هنا إنّ بلاغة الرواية لا ترتبط فقط بمباحث البلاغة المعروفة وهي المعاني والبيان والبديع ، وإنما ترتبط بجنس الرواية ومميزاته التي تُفرّق بينه وبين الأجناس الأدبية الأخرى ، فعلى الرغم من أهمية التحليل البلاغي التقليدي في الكشف عن أدبية النصوص ، إلا أنه بقي



حبس معياريته التقليدية في عدم تجاوز الجملة، أو البيت الشعري، لأن البحث النقدي يقتضي الإلمام بخصوصية الجنس الأدبي الذي بين أيدينا لأننا نتعامل مع النص بوصفه وحدة كبرى ذات دلالة كليّة، فالأسلوبية واجهت (المفهوم البلاغي بكونها تنطلق من العمل نفسه، وليس من معايير مسبقة أو من رؤية جاهزة لوظيفة الأدب، فالعمل الأدبي بالنسبة إليها هو استخدام خاص للغة)¹⁸.

ولما كان لكل نص أدبي خصائص تميّزه عن غيره من النصوص الأخرى، سواء على مستوى الشكل أم على مستوى المضمون، فإن أهم سمة يضطلع بها هو تبنيّه لمفهوم ايديولوجي، يتبنّاه المؤلف ليرسّله للمتلقّي، حيث تقوم البنية الإيديولوجية للنص على تتبع مضمونه بوصفه بنية كليّة نابعة من أفق الكاتب

2 - 5. مفهوم الإيديولوجيا:

إن بنية الأسلوب في الرواية لا تقتصر فقط على تحليل مكونات الرواية لتحديد أسلوبها، وإنما البحث في عمومها مرتبط بمضمونها على أساس أنه يمثل موقفاً معيّناً تجاه قضية ما، وهذا ما يسمّى بالايديولوجيا، لأن أي رواية تحتوي على أساليب متعدّدة وأصوات مختلفة، وهذا ما يساعد على فهم مضامين الروايات من خلال البعد الاجتماعي أو الإيديولوجي الذي يتبنّاه الكاتب، ونحن هنا لسنا بصدد الحديث عن الإيديولوجيا ونقدها، ولكن الذي أثار انتباهنا في مقامنا هذا أن تحليل الرواية ينبغي أن يوضّح الغرض الذي تؤدّيه بتحليل مستوياتها التركيبية والدلالية؛ ويرى حميد لحمداني أن الرواية (في مجموعها هي مبنية ككل فريد، وعضوي خاضع لقوانينه النوعية الخاصة، وكل العناصر الروائية الأخرى بما فيها تركيبها، أسلوبها، هي أيضاً مبنية، ولكن هذا التبنين





الروائي قد تم إضافة إلى ذلك في علاقة حميمة مع التحوّلات التي تجري في مجموع الأدب¹⁹.

نعتقد أن التحليل الأسلوبي للرواية ينبغي أن يربط بين نظام اللغة والبناء الفني للرواية في علاقته بالأسلوب لتحقيق مبدأ الحوارية الذي نادى به باختين، فلا نفصل المعنى الايديولوجي -الذي يُوظّف في الرواية- عن الأسلوب الذي كتبت به، لأن هذا الفصل سيؤدّي إلى النظر إلى الرواية على أساس المضمون دون الشكل أو العكس وهذا يتنافى مع التحليل الأسلوبي ويلج باختين (على ما يضيفي الخصوصية على الرواية ويميز أسلوبيتها، هو موضوع الإنسان الذي يتكلم وكلامه، فهذان العنصران الأخيران تتخذ منهما الرواية موضوعاً لتشخيص لفظي أدبي، والمتكلم في الرواية هو دائماً، وبدرجات مختلفة، منتج ايديولوجيا، وكلماته هي دائماً عينة إيديولوجية)²⁰.

على أن العلاقة بين نظام اللغة ونظام الأسلوب في الرواية هي ما يحقق لنا تحليل التراكيب اللغوية في الرواية، لاستخلاص سمات الأسلوب فيها، وبالتالي استخلاص وجهة نظر الراوي وعلاقته بالشخصيات الأخرى المشكّلة للحدث الروائي، ويؤكد هذا المعنى ما ذهب إليه باختين في البحث (عما هو اجتماعي على ما يوحد من تعددية الأصوات وتعددية الإيديولوجيات، أي من خلال حوارية النص الروائي، ولذلك فهي تبقى دائماً في إطار فهم العالم الداخلي للرواية دون أن تقتصر على تفسير هذا العالم)²¹.

إضافة إلى ذلك نجد أنّ البناء الداخلي للروايات هو ما يُحقق أسلوبها على مستوى الشكل والمضمون، ولا نقصد بالأسلوبية هنا أو ببنية الأسلوب في الرواية مضمون الرواية دون شكلها، ولا نقصد بتوظيفنا للايديولوجيا البحث في المنهج الاجتماعي في النص السردي، ولكننا وظفنا





هذا المصطلح لأنه يُؤكّد على مبدأ الحوارية في الرواية عموماً، فلا تخلو أي رواية من أصوات وأساليب متعدّدة، وهذا يُؤكّد تباين المستويات اللغوية فيها (فحتّى لو كان باختين يتحدّث عن الإيديولوجيا في الرواية فهو يعتبرها مادة أوّلية من مواد بناء الرواية، وإنّما ليست مُقتبسة من الواقع، ولكنّها تجسيدٌ لواقع الإيديولوجيا نفسها: أي مظهر من مظاهرها، فالنّص إذا ليس موجوداً خارج الواقع الإيديولوجي ولكنّه منغمس فيه، ولذلك فهو ليس في حاجة إلى أن يعكس الإيديولوجيا مادام يُوجد في مجراها الطبيعي)²².

ولا يخفى بهذا أنّ التوجّه الذي ينتهجه الكاتب أو الروائي في نصّه ليس بالضرورة أن يرتبط بالواقع الخارجي ويُحيل عليه دائماً، ولو كان هذا قصد باختين لما استطاع أن يُطبّق منهج الأسلوبية على الرواية، لأنّه اعتبر الكلمات كدوال لغويّة تشتغل داخل النّص الروائي دون أن تحيل في كلّ مرّة على الواقع أو المرجع، وبالتالي فالإيديولوجيا هنا متعلّقة بالنّص الروائي من داخله، ويرى حميد لحمداني (أنّ دراسة الإيديولوجيا في النّص الروائي ليست في حاجة إلى الإحالة على ما هو خارج النصّ وهنا بالذات يلتقي باختين مع الدراسة التزامنيّة synchronique التي تلحّ عليها البنيوية، في هذه الحالة تُصبح دراسة حوارية dialogisme النصّ الروائي باعتباره مُجسّداً لمجموعة من الإيديولوجيات المتصارعة هي المحور الأساسي لكلّ تحليل، ومن الطبيعي أن يتم التركيز في مثل هذا التحليل على الأعمال الرّوائية التي تُحقّق هذه الحواريّة حين ينفلت النصّ ذاته باعتباره كلاً من أي تحديد أو تأويل إيديولوجي لأنّه-إذا صحّ التعبير-يقع فوق الإيديولوجيات)²³.





الخلاصة

وفي خلاصة بحثنا هذا نُوضِّح بعض الفوارق بين المنهجين البنيوي والأسلوبى، وإن بدا لنا قبل ذلك أن نبين للقارئ أن استعمالنا لمصطلح السلطة، والبنية، والأسلوب في التحليل هو من باب صرامة المناهج النصّية في اعتمادها على مُصطلحات تُؤسس للمقاربة النقدية الداخلية للنصوص، فسلطة البنية تتأسس في الرواية من منظور فكرة العلاقات التي تربط بين مكونات الرواية، فلا نستطيع أن نؤلف رواية دون شخصيات مثلاً، أو دون زمان أو مكان، ولكنّ هذه المكونات والخصائص التي يمتاز بها النص السردى عموماً هي ما يتيح له الانفراد والتميّز عن غيره من الأجناس الأدبية الأخرى، وخاصة جنس الشعر، وإن كان في مقدورنا الآن استعمال مصطلح شعرية الرواية ونثر الشعر أو قصيدة النثر.

وما جعلنا نستعمل مصطلح سلطة البنية هو هذا القانون الذي تفرضه البنية وخصائصها في مقارنة النص انطلاقاً من فكرة العلاقات؛ لتحقيق أهداف المنهج البنيوي: وهي تحقيق مفهوم الكليّة الشموليّة والربط بين العناصر من خلال مفهوم القيمة الذي يتجسّد في أصغر وحدة دالّة وهي الكلمة، فلا وجود لمعناها إلا في السياق وهذا ما يُحقّق قيمتها ولقد (شجّعت اللسانيات البنيوية الخطاب النقدي على البحث عن النسق الأدبي انطلاقاً من فكرة الكليّة والعلاقة التي تجمع بين عناصر النص الأدبي)²⁴.

أمّا فيما يتعلّق ببنية الأسلوب فكان اعتمادنا لمفهوم البنية انطلاقاً من الربط بين البنيوية والأسلوبية، لأن أصل المنهج الأسلوبى هو اللسانيات البنيوية لكنّ الاختلاف يتجلّى في اعتماد الأسلوبية على إجراءات خاصّة في التحليل، وإن كان بعض هذه الإجراءات لا يخرج عن مفاهيم اللسانيات؛ كاستعمالنا لمصطلح الاختيار والتأليف في الأسلوبية،



بما يقابله في اللسانيات ثنائية المحور الاستبدالي، والمحور التركيبي، وقد اعتمدنا تفكيك بنية أسلوب الرواية بالنظر إلى العلاقات التي تحكم عناصرها وهي الأحداث والشخصيات، والزمان، والمكان، وتفاعل هذه المكونات مع بعضها البعض لتشكيل مدلول الرواية، من هنا فرّق عبد السلام المسدي بين الأسلوبية والبنوية بناء على المستويات الآتية:

*1 مبدأ الشعريات / فهو يتأسس على أثر النص في الأسلوبيات وعلى منطوقه في البنوية.

*2 الأدب / إنه لغة شعرية في نظر الأسلوبيات وشعريات لغوية في نظر البنوية.

*3 شارح النص / مفكك لرسالة فنية في الأسلوبيات، ومركّب لبناء صوري في البنوية

*4 الوظيفة يهتم الأسلوبى بتجهيز ملف التشخيص قصد تحديد القيمة من قبل الناقد، أما البنوي فيعالج جسم النص معالجة محايدة ومباشرة²⁵.

هذه بعض الفوارق التي قدّمها الباحث عبد السلام المسدي في تمييزه بين المنهجين البنوي والأسلوبى، وإن كنا نرى أن التطبيق الفعلي للمنهجين على الرواية لا يتحقق بصفة مطلقة وكلية، فبعض الدراسات تهتم بالشخصيات في الرواية، ولا تطبق مفهوم البنية، وإنما تطبق إجراءات المنهج السيميائي لكونه أقرب إلى تحليل الشخصية بوصفها علامة لغوية، وبعض الدراسات تُطبّق الأسلوبية ولكنّها تميل إلى تحليل مضمون الرواية انطلاقاً من ايدولوجية الرواية بالإحالة إلى خارج النص دون الاهتمام ببنيته الداخلية كما أشار إلى ذلك بعض النقاد ومنهم آراء الباحث بيرزيم في النقد الاجتماعي للرواية.





ومهما حاولنا الوصول إلى الدقة العلمية التي تتطلبها العلوم التقنية كالرياضيات والبيولوجيا، فإننا لا نستطيع تطبيق المعرفة العلمية على الدراسات الأدبية بصرامتها وموضوعيتها، لأننا لا نتوصل إلى المعنى الواحد للنص الأدبي، فهو متعدد الدلالات، ومنفتح على كل المناهج وخاصة النصية منها، وهذه ميزة النصوص الأدبية فهي تتمتع على المحلل والقارئ، وإن بدت طيعة سهلة المنال في تجليها الكتابي، وفي اختيار المنهج المناسب دور مهم في كل عملية تحليلية تتطلبها المعرفة العلمية للأدب لاستخلاص القواعد والقوانين من كل جنس أو نوع أدبي.

الهوامش:

- 1 - سمر روجي الفيصل: أسلوبية الرواية العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، د ط، 2011، ص 12.
- 2 - إبراهيم زكريا: مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، دار مصر للطباعة، د ط، 1990، ص 08.
- 3 - عبد السلام المسدي: النقد والحداثة، دار أمية دار العهد الجديد، تونس، ط 2، 1989، ص 44.
- 4 - بشير قمري: شعرية النص الروائي قراءة تناسية في كتاب التجليات، البيادر للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، ط 1، 1991، ص 13.
- 5 - ينظر محمد سويرتي: النقد البنيوي والنص الروائي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، 1994، ص 09.
- 6 - روجر فاوئر: اللسانيات والرواية ترجمة لحسن احمامة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1997، ص 47.
- 7 - محمد سويرتي: النقد البنيوي والنص الروائي، ص 69.





- 8 -إ.م.فورستر:أركان الرواية ترجمة موسى عاصي، مطبعة جروس برس، لبنان، ط1، 1994، ص25.
- 9 -روجرفاولر: اللسانيات والرواية ، ص08.
- 10 -حسين الواد: في مناهج الدراسات الأدبية منشورات عيون، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء المغرب، ط1988، 4، ص66.
- 11 -عبد السلام المسدي: في آليات النقد الأدبي، دارالجنوب للنشر، تونس، دط، 1990، ص72.
- 12 -إبراهيم خليل: الأسلوبية ونظرية النص، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1997، 1، ص74.
- 13 -نور الدين السد: الأسلوبية و تحليل الخطاب، ج1، دار هومة، الجزائر، د ط، 2010، ص188.
- 14 -سمرروحي الفيصل: أسلوبية الرواية العربية ، ص ص45، 46.
- 15 -ينظرعبد السلام المسدي: النقد والحداثة ، ص57،.
- 16 -صدوق نور الدين: حدود النص الأدبي،دراسة في التنظير والإبداع، دارالثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1984، 1، ص19.
- 17 -صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، دارالكتاب المصري، القاهرة، مصر، ط1، 2004، ص352.
- 18 -جودت فخر الدين:شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثاني الهجري، دارالآداب، بيروت، لبنان، ط1994، 1، ص252.
- 19 -حميد لحداني: النقد الروائي والايديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1990، 1، ص77.
- 20 - ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط2009، 1، ص33.





21 - حميد لحمداني: النقد الروائي والايديولوجيا ، ص 83.

22 - حميد لحمداني: النقد الروائي والايديولوجيا ، ص 07.

23 - المرجع نفسه ، ص ص 07 ، 08.

24 - أحمد يوسف، القراءة النسقيّة، سلطة البنية ووهم المحايثة،

منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 2007، 1، ص ص 220، 221.

25 - عبد السلام المسدي، في آليات النقد الأدبي ، ص 72.

قائمة المصادر والمراجع

1- براهيم خليل: الأسلوبية ونظرية النص، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 1997، 1.

2- أحمد يوسف: القراءة النسقيّة، سلطة البنية ووهم المحايثة، منشورات الاختلاف الجزائر، ط 2007، 1.

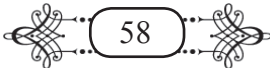
3- إ.م. فورستر: أركان الرواية ترجمة موسى عاصي، مطبعة جروس برس، لبنان، ط 1994، 1.

4- بشير قمري: شعرية النص الروائي قراءة تناسية في كتاب التجليات، البيادر للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، ط 1، 1991.

5- جودت فخر الدين: شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثاني الهجري، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط 1994، 1.

6- حسين الواد: في مناهج الدراسات الأدبية منشورات عيون ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء المغرب، ط 1988، 4.

7- حميد لحمداني: النقد الروائي والايديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1990، 1.





- 8- روجر فاوئر: اللسانيات والرواية ترجمة لحسن احمامة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1997.
- 9- إبراهيم زكريا: مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، دار مصر للطباعة، دط، 1990.
- 10- سمر روجي الفيصل: أسلوبية الرواية العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، دط، 2011.
- 11- صدوق نور الدين: حدود النص الأدبي، دراسة في التنظيم والإبداع، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1984.
- 12- صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر، ط2004، 1.
- 13- عبد السلام المسدي : في آليات النقد الأدبي، دار الجنوب للنشر، تونس، دط، 1990.
- 14- عبد السلام المسدي: النقد والحداثة، دار أمية دار العهد الجديد، تونس، ط2، 1989.
- 15- محمد سويرتي: النقد البنيوي والنص الروائي ،افريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب ، ط1994، 2.
- 16- ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط2009، 1.
- 17- نور الدين السد: الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج1، دار هومة، الجزائر، دط، 2010.



